اطلقوا النار على الكلمات !

بقلم : عبدالحميد بن هدوقة

لست ادري أكان ذلك في حلم ، أو في كابوس ، او في يقظة خاصة ، من هذه اليقظات القليلة التي تحدد مصائر الامور ؟

كل ما أدريه ان تلك المدينة كانت في مكان لا اعرفه ، وفي زمان يختلف عن أزمنة الناس العادية ، التي تقاس بالساعات والايام والشهور . . . بحيث لا يمكن لأحد ان يقول مثلا : «وقع ذلك في يوم كذا ، في شهر كذا ، في سنة كذا . . .» !

انما كان ذلك في زمان انمحت فيه الفوارق بين ليله ونهاره ، بين ساعاته وأيامه ! كان ابدا في لحظة ، ولحظة في أبد !

لقد سمع الناس - كما حكى الشاعر - صوتا يعرفونه ولا يرونه ! له اسم وحقيقة ، لكن ليس مجسما في شخص معين يقول للشاعر :

«هذه السطور ممنوع نشرها»

«هذه ممنوع ان تكتب»

«هذه ممنوع التفكير فيها» !

. . . . . (رقابة ذاتية)

رد الشاعر :

«البلد مشوّه ، جدرانه ، شوارعه ، حقوله ، رماله ، آثاره القديمة ، مشارعه الجديدة . انسانه ، ثقافته . . . مشوّه ، مشوّه ، ، مشوّه !»

«لابد من فعل شيء . أيدي البشر متساوية هنا وهناك . لا توجد يد بأربعة اصابع ، وأخرى بستة ، خمسة اصابع لليد هنا ، خمسة اصابع لليد هناك» .

«العيون ايضا متماثلة لدى الناس ، عينان للانسان هنا ، وعينان للانسان هناك . القبيح قبيح في كل مكان ، الجميل جميل في كل مكان . العالم أصبح صغيرا . حواجزه اليوم شفافة ، زجاجية ، تحول بين البلد والآخر ، لكن لا تمنع الرؤية . . .»

«هنا كل شيء مختل . أيد تعمل وأخرى تكنز ! بطون تزداد اكتظاظا واخرى تزداد طوى !»

«لابد من فعل شيء . لابد ان يمشي كل انسان برجليه . ان ينظر كل واحد بعينيه . ان يفكر كل رجل برأسه . ان يتحدث بلسانه . ثم لابد ان يأكل بيديه .»!

نقلت الحاشية الى الباش شاويش نبطجي ما قال الشاعر !

ونقل الباش شاويش نبطجي الى الحاكم برأيه ما قال الشاعر !

لسان الشاعر كان اقوى من قلم الرقيب ! صار الناس يقرأون كلمات الشاعر مكتوبة ، ومشطبة ، وصامتة !

دعا الحاكم برأيه الباش عسكرجي والباش شرطنجي والباش شاويش نبطجي الى اجتماع عاجل . وتكلم :

«لابد من وضع برنامج عاجل للرد على كل شاعر ، وكل حائر ، وكل مغامر !»

قال الباش شاويش نبطجي :

«نأمر وزير الفنون الجميلة بتكليف الفنانين والرسامين الكبار في وزارته ، برسم جداريات ، تقام في الحدائق والساحات العمومية . في زوايا الشوارع الرئيسية ، في المحطات البرية والبحرية والجوية . يراها كل عابر ومكابر . تمحو الصور المشوهة . تحل محلها . تمتع . تقدم للنظر صور مجتمع متطور مزدهر !

وبذلك يسقط كلام كل شاعر !

«ونأمر وزير الصناعات والبناءات بتكليف المهندسين والصناع الماهرين ببناء ابراج بلورية ، ترى من مسافات وفضاءات بعيدة ! بالنهار تعكس الاشعة بألوان قزحية ، وبالليل تجهز بانارة تجعل الليالي احلاما سماوية ! تمتع وتشبع !

وبذلك تنمحي مطالب الجائعين ، وأقوال المتبجحين من الشعراء الضالين !»

ونأمر وزير الفلاحة يتخذ قرارا بعرض احسن غلال البلد مع الغلال المستوردة في واجهات ، على مر الفصول. لا تباع ولا تشترى ! تشبع النظر ، وتنسى في الحيف والقهر ، وبذلك نقضي على ألسنة الشر !

«ونأمر وزير الرقابة ، بمنع الكتابة . بمنع التفكير والشعر . بمنع كل لحن لا ينسجم مع أغاني القصر !» .

قال الباش شرطنجي :

«المدينة مستديرة ، وشرطتنا بكل مداخلها ومخارجها خبيرة ! تعرف احلام النائمين ، وهلوسة السكر في رؤوس الشاربين ! فلماذا لا نجمع الشعراء والشعر ، ونرمي بالجميع عرض البحر ؟» .

الباش عسكرجي سكت !

قال الحاكم برأيه :

«نرفع الجلسة الى زمن لاحق ، قد تنطفىء وحدها هذه الحرائق !» .

القذارة لوثت وجه المدينة . الشوارع ، الساحات ، اسودت بأنفاس العاطلين والجائعين والنشالين والراكعين !

الحاكم برأيه والباش عسكرجي والباش شرطنجي والباش شاويش نبطجي ، بنيت لهم دور وقصور خارج المدينة . بعيدا عن روائحها القذرة . لا تصلهم نداءات ولا عويل ولا ألم !

واتخذت قرارات :

- ان يرفع الباش شاويش نبطجي الى الحاكم برأيه شائعات المدينة !

- ان يقوم الباش شرطنجي بتسجيل كل اصوات المدينة ، حتى وقع الاقدام ، وتغريد الحمام !

- ان يتبرع الحاكم برأيه على سكان المدينة كل سنة ، بمناسبة عيد حكمه ، بزجاجتين لكل ساكن ، احداهما عطر ، والاخرى خمر !

السكان يغلون غضبا وتعبا ! المجاعة ، البطالة ، القذارة . . .

لكن الباش شاويش نبطجي كان ينقل الى الحاكم برأيه ما يسر . متحاشيا كل ما قد يعكر صفو راحته . او يزعج طمأنينة حياته . كان يقول له ان المدينة متعلقة بشخصه وعرشه وجيشه ، وتدعو بدوام حكمه وحلمه !

انتظر السكان خروج الحاكم برأيه من قصره ، في عيد حكمه ، ليعرضوا عليه

حالهم . لكن الحاكم برأيه كلف الباش شاويش نبطجي . .

انتظروا السنة المقبلة . .

لكن الحاكم برأيه في هذه المرة كلف الباش شرطنجي !

عاد السكان الى المدينة . عقلاءهم نصحوهم بالانتظار سنة اخرى . . وأخرى . . .

وأخرى . . . !

وخرج الحاكم برأيه !

تعالت النداءات : «خرج الحاكم برأيه!»«خرج الحاكم برأيه !»

تقدم السكان في موكب رهيب . أمامهم شعراؤهم ينشدون اغاني العاطلين والجائعين . . .

«يالغواية هؤلاء الضالين !» تقرّحت أذنا الحاكم برأيه من تلك الاصوات المبحوحة الجائعة !

ونادى الباش عسكرجي !

. . . . . (رقابة ذاتية)

عاد السكان الى المدينة مغضبين خائبين !

قال الشبان : نثور !

قال الشيوخ : ننتظر !

قال الشاعر : نتكلم ! المدينة خنقتها القذارة والدعارة والمكرة ! اصبح الانسان فيها مجموعة من الغرائز ، والنزوات ، والحاجات !

وتراقصت الكلمات حول الشاعر في موكب من نور ، شموسه أقبلت من كل الآفاق الموردة بدماء المحرومين والمضطهدين . اصواتها محيط متلاطم من ڤيتارات العاطلين وعويل الجائعين ! والتفت الشاعر الى المدينة :

«ايتها المدينة التي ترزح تحت وطأة القصور !

ايتها المدينة ، الضائعة وراء الانوار الخادعة !

ايتها المدينة التي طاول صبرها الابد !

«ايتها المدينة الشقية بركوعك لمعبوديك !

«افيقي ان الليل قد طال !

«ايها السكان الجائعون العاطلون الخائفون ، اخرجوا بصدور عارية !

«املؤوا الشوارع صراخا يزعزع القصور !

«كل القصور !

«احلامكم اقوى من مدافع الطغاة !

«أولئك عبيد الموت !

«أنوار الحرية تعشى ابصارهم !

«كلماتهم قديمة ، ممجوجة ، يعرفها كل الطغاة !

«انها تشهد على غبائهم !

«زمانهم انتحر !

«أحلامهم سكر وعربدة ، لم تخلف للبشرية سوى الصداع !

«اخرجوا ايها الخائفون !

«مزقوا الليل !

«ان النور في متناول ايديكم ، فلم البقاء في الظلام ؟

«الحرية لا تعلب وتقدم هدايا . انها ميلاد دام مؤلم . لكنها ميلاد عظيم !

«اخرجوا ايها الخائفون !

«ليل العبودية تزيحه الصدور العارية ، والارجل الحافية !»

خرجت جماهير الجائعين !

وفي السماء نادت أصوات ملكوتية : «خرجت جماهير الجائعين !»

خرجت جموع العاطلين !

وفي السماء علت اصوات ملكوتية : «خرجت جموع العاطلين !»

خرجت النساء بوجوه عارية ، ورؤوس عالية !

وفي السماء دوت ضحكات مرددة : «خرجت النساء بوجوه عارية ، ورؤوس عالية !»

خرج المحرومون والمظلومون والخائفون !

امتلأت الشوارع والساحات !

أمام واجهة مجوهرات ، لمست الفتاة اذنيها وهي ترى الاقراط . حملقت فيها . أخذت حجرا ورمت به الواجهة ! تحطم الزجاج ! سقطت الاقراط والمجوهرات ! داستها الفتاة ورفستها ، والتحقت بالاخريات !

أمام سيارات فخمة ضخمة تساءل العامل العاطل ! لمن هي ؟ لأصحاب معامل

عطور ، او اصحاب وساطات وخمور ؟ لايهم . صف الاغنياء والوسطاء واحد مهما اختلفت المهمات !»

كومة من جرائد قرأها اصحابها ورموها . رفعها العامل . تأمل فيها : سواد على بياض ! لا يعرف القراءة . .

اخرج من جيبه علبة ثقاب ، اشعل الجرائد ورماها تحت سيارة !

التهبت سيارة ، وسيارة ، وسيارة !

علا الدخان في السماء ليعلم العاطلون والمحرمون ان مكاسب الظلام صارت دخانا!

أمام مدرسة ، رمى شاب زجاجة حارقة داخل المدرسة ! اخفق في الامتحان . لم يكن من ذوي الشأن . طردته المدرسة !

التهبت المدرسة مع الملفات ، والتحق بصفوف المطرودين من المدارس ، الضائعين ، في سيل عارم ، يدمر كل شيء ! والتقى السيل بالسيل والويل بالويل ! وعلت الهتافات والهرافات تعلن للدنيا ان المدينة ليست نائمة !

خرج الباش عسكرجي في رزانة ، والباش شرطنجي في ثقة . تعانقت الايدي والنظرات ونصبت البطاريات والرشاشات ، في الساحات والباحات والمنتزهات ! رفعت البنادق رؤوسها للسماء ، تتحدى السماء ! طوقت الدبابات «حزب الشعب» ، تحميه من الشعب !

ضربت حصارا حول «مكاسب الثورة» تحميها من الثورة ! أعلن منع التجول والتسول والتقول . منذ اليوم الاول ! اغلقت ابواب المدينة على المدينة ! اسدل الستار ، على النهار !

. . . . . (رقابة ذاتية)

هكذا هدأت المدينة ! زال هرجها ومرجها . صارت الانهج . التي كانت من قبل مكتظة ، بلا مارة ، بلا مشردين ، بلا عاطلين ، بلا اوساخ ! لا باعة ، لا زبائن ، لا عمل ، لا أمل ! كل شيء سكن حيث هو !

قال الباش عسكرجي للباش شرطنجي : «ان الحل هو الموت كل المشاكل تنتهي بالموت ! الميت لا يشكو ، ولا يحتج والموت حق ! كأنا وأنت ! أليس الموت العاجل خير من الحياة الباطلة الزائلة ؟ الفرق ان يموتوا اليوم ، او بعد سنين ؟ الراحة في الموت الحاضر ، افضل من موت منتظر !

..... (رقابة ذاتية)

تحققت المساواة في لحظات ! الموت عادل ، لا يفرق بين كبير وصغير ، بين عاطل او فقير ، بين عابد او سكير !

في غمرة ذلك الموت الاكبر ، خرج الشاعر ! سددت اليه البطاريات والرشاشات وصرخ قائد البندقيات :

اطلقوا النار على الكلمات !»!

قتل الشاعر !

لكن لم تقتل الكلمات !

صوتها كان اقوى من كل الطلقات :

«ايها الهاربون ، بنيتم للشعوب قبورا فمن يقيكم اليوم هنا ؟

«من ينقذكم من نقمة البطون الجائعة والاحلام الضائعة ؟

«هل تحميكم اموالكم الطائلة ، من الايدي العاطلة ؟

«ان الموت امامكم ، والشعب وراءكم !»!

الجزائر في اكتوبر 1988